مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٧) العدد (٥) ٢٠٢٣
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (٧) No. (٥) 2023

النّزعة الصّوفيّة في شعر ميخائيل نعيمة
. ديوان (همس الجفون)

هبه مصطفى*

(تاريخ الإيداع ٦/٦ /٢٠٢٣. قُبِل للنشر في ٧/٢٦ /٢٠٢٣)

□ ملخّص □

تبنّى ميخائيل نعيمة رؤيةً خاصةً للحياة والوجود تعكسُ تجربتَه الذّاتيّة المُكوَّنة من آلامه وأشواقه وجهدِه الوجدانيّ والنّفسيّ. وقد اتّسمت تلك الرّؤية البارزة في شعره بروحانيّة عالية، ففي نصّه الشّعري تتألّقُ المعاني الصُّوفيّة، وترتفعُ المشاعر والعواطف البشريّة إلى مقامات سامية.

ناقشَ البحثُ تجلّيات تلك النّزعة الصّوفيّة في شعر (نعيمة)، مُحاوِلاً أن يستكشفَ مكامنَ الفكر الصّوفيّ في إبداعه، ومُعتمِداً على ديوانه الوحيد المُعَنون باسم (همس الجفون).

وقد ركّزت هذه المناقشة على دراسة أهمّ السّمات الصُّوفيّة البارزة في الدّيوان كالزُّهد، وعشقِ الطبيعة، والحبّ الإلهيّ، والإيمانِ بحقيقة الإنسان، وبعقيدةِ وحدة الوجود. إضافةً إلى الحديث عن الوعي الصُّوفيّ لدى (نعيمة)، وتعمُّقِهِ الوجدانيّ في جوهر نفسه، وتعبيرِهِ عن تجربة روحيّة ذاتيّة، كانَ من أهمّ ثمارها الشّعور بالأُنْسِ والطّمأنينة، والسّعادة النّقيّة النّابعة من المعرفة الحقيقيّة بالخالق.

الكلمات المفتاحيّة : النّزعة الصّوفيّة، ميخائيل نعيمة، التّصوُّف، همس الجفون.

* معيدة، قسم اللّغة العربيّة، جامعة طرطوس، سوريا.

حاصلة على درجة الماجستير في قسم اللّغة العربيّة من كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة دمشق.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٧) العدد (٥) ٢٠٢٣
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (٧) No. (٥) 2023

Sufi Tendency In The Poetry Of Michael Naima Divan (Hams Aljufun) -

Hiba Moustafa *

(Received ٦/٦ /٢٠٢٣. Accepted ٢٦/٧/٢٠٢٣)

□ ABSTRACT□

Michael Naima adopted a special vision of life and existence that reflects his own experience consisting of his pain, his longings, and his emotional and psychological effort. This prominent vision in his poetry was characterized by high spirituality.

In his poetic text, mystical meanings shine brightly, and human feelings and emotions rise to sublime stations.

The research discussed the manifestations of this sufi tendency in the poetry of (Naima), trying to explore the sources of sufi thought in his creativity, and relying on his only divan entitled (Hams Aljufun).

This discussion focused on studying the most prominent sufi features in the divan, such as asceticism, love of nature, divine love, belief in the truth of man, and the doctrine of unity of existence. In addition to talking about the mystical awareness of (Naima), his emotional deepening in the essence of himself, and his expression of a subjective spiritual experience, one of the most important results of which was the feeling of companionship, tranquility, and pure happiness stemming from the true knowledge of the Creator.

Key Words : Sufi Tendency , Michael Naima , Sufism , Hams Aljufun .

* Teaching assistant , The Department of Arabic Language , Tartous University , Syria .
Master's Degree in the Department of Arabic Language from the Faculty of Arts and Human Sciences , Damascus University .

مقدّمة :

النّصُّ الأدبيّ نسيجٌ من الأفكار والمشاعر والميول والنّزعات النّفسيّة الّتي تتضافرُ معاً في توليده وتشكيله وصياغته، فهي البذور الأساسيّة للتّجربة الأدبيّة، وبفضلها ينمو العالمُ التّعبيريّ في مُخيّلة المُبدع.

يُنشِئُ هذا البحث محاولةً واعيةً هادفةً إلى إدراك العالم الشّعريّ الخاصّ بالأديب ميخائيل نعيمة، وإلى فهم الرُّؤى الصُّوفيّة الّتي عبّرَ عنها، إذ إنّ إبداعَهُ الشّعريّ نابضٌ بالإحساس الصّوفيّ الصّادق السّاميّ.

و قد اختارَ البحثُ دراسةَ تلك النّزعة الصّوفيّة البارزة في شعره بناءً على ما يأتي :

- الأديب ميخائيل نعيمة (نبذة عامّة).
- جوهر الحسّ الصّوفيّ.
- تجلّيات النّزعة الصّوفيّة في شعر ميخائيل نعيمة.

أهميّة البحث و أهدافه :

تكمنُ أهميّةُ البحث في كونه يتناولُ موضوعاً يتّسمُ بالجِدّة، فالأبحاث حول شعر (نعيمة) نادرة، أو تكاد تكون معدومة. كما أنّ السّمة الصُّوفيّة الجَليّة في شعره لم يُسلَّط الضّوء عليها، و لم تَنَل حقَّها في الدراسة الأدبيّة. لذلك فإنّ البحث يهدفُ إلى الاهتمام بدراسة تلك السّمة، وبمناقشة تجلّياتها المختلفة في ديوانه الوحيد (همس الجفون) الّذي لم تتّجه إليه أنظارُ الباحثين بالدّرس الوافي.

لكن في سبيل تقديم صورة واضحة عن الدّراسات السّابقة المُتعلّقة بالاتّجاه الصُّوفيّ، لا بُدّ من الإشارة إلى وجود دراساتٍ ليست بقليلة تناولت النّزعة الصُّوفيّة في الأدب العربيّ المعاصر، نذكرُ منها على سبيل المثال :

/النّزعة الصُّوفيّة في الشّعر العربي المعاصر– مصطفى محمد هدارة/

/النّزعة الصُّوفيّة في الشّعر العربي المعاصر بين تخطّي المحسوس والانعطاف نحو الباطن– بغاديد عبد القادر/

/النّزعة الصّوفيّة في كتابات جبران خليل جبران– د.عبد العزيز بوشلالق/

/تجلّيات النّزعة الصُّوفيّة في شعر الأمير عبد القادر الجزائري– عليوة نصيرة/

/تجلّيات النّزعة الصُّوفيّة في ديوان ذاكرة القوافي للشّاعر السّيّد نظام الدّين فضل الله– غنوم عماد/

/تمظهرات النّزعة الصُّوفيّة وأثرها على صلاح عبد الصّبور– جلول قطاف/ .

منهجيّة البحث :

يعتمدُ البحث بصورة عامة على المنهج الوصفيّ التّحليليّ في تناوله لنصوص ميخائيل نعيمة الشّعريّة.

وهو من مناهج البحث العلمي القادرة على تحليل الأثر الأدبيّ تحليلاً منطقيّاً ممّا يُساعد في الوصول إلى استنتاجاتٍ ونتائج دقيقةٍ لكونِهِ يتّصفُ بشموليّةٍ واسعة ومرونةٍ كبيرة، فهو يجمعُ بين منهجَين علميّين أساسيّين هما الوصفيّ والتّحليليّ.

يُشكّلُ المنهجُ الوصفيّ الأساسَ في دراسة ظاهرة البحث؛ إذ يقومُ في البدء بجمع البيانات والمعلومات الدّقيقة المُتعلّقة بالظّاهرة، لِيتّجهَ من بعد ذلك إلى شرحها وتفسيرها، ومعالجتها مُعالجةً مُنظّمة مُتسلسلة.

ليُساعدهُ في سياق الدّراسة المنهجُ التّحليليّ الّذي يقومُ بإدراك الظّاهرة الأدبيّة إدراكاً كُلّياً، ومن ثمّ يسعى إلى تحليلها وتركيبها بشكلٍ يوضّحُ عناصرَ جمالها، ويُبيّنُ معانيها الخبيئة، ويستخرجُ دلالاتها الكامنة.

وكلّ ما سبق يقودُ إلى الوصول إلى نتائج وخُلاصات منطقيّة لموضوع البحث.

- الأديب ميخائيل نعيمة (نبذة عامّة) :

ولِدَ الأديب الكبير (ميخائيل نعيمة) في «بسكنتا» القائمة على سفح جبل صنّين في لبنان عام ١٨٨٩م، وأتمَّ دراسته للمرحلة الابتدائيّة في المدرسة الرّوسيّة فيها، لينتقلَ من بعد تلك المرحلة إلى دار المعلّمين الرّوسيّة في مدينة النّاصرة بفلسطين حيثُ أتمَّ علومهُ فيها على مدى أربع سنوات، أُرسِلَ من بعدها في بعثة علميّة إلى مدينة بولتافا في روسيا حيث واصلَ تعليمهُ في جامعتها، وظلَّ فيها حتّى سنة ١٩١١م، فنَهلَ من معين الأدب الرّوسي الغزير، وتأثّرَ بأعلامه الكِبار في الشّعر والنّثر[١].

وبعدَ أن أنهى (نعيمة) إيفاده إلى روسيا عادَ إلى لبنان حيثُ التقى بأخيه الأكبر أديب الّذي أقنعهُ بمرافقته إلى أميركا إذ كان حينذاك عائداً منها لزيارة أهله، فَسافرَ ميخائيل إلى الولايات المتّحدة، ونزلَ في ولاية واشنطن الّتي دخلَ في جامعتها عام ١٩١٢م لدراسة الحقوق والآداب، فَنالَ الشّهادة عام ١٩١٦م، وكان يرغب في العودة إلى لبنان لكنَّ الحرب العالميّة المُشتعلة وقتئذ كانت تسدّ عليه طريق العودة، وأرغمتْهُ على أن يخدمَ في الجيش الأميركي مسوقاً بنظام الجنديّة الإجباريّ، فأُرسِل إلى جبهة القتال في فرنسا، ليعود في عام ١٩١٩م إلى أميركا مُسرّحاً من الجنديّة[٢].

وفي تلك الآونة قادتْهُ الظّروف إلى لقاء عددٍ من الأدباء المهجريّين، فانعقدت الصّلة بينه وبين جبران، ونسيب عريضة وإيليا أبي ماضي، وغيرهم من الأدباء الّذين أسّسوا فيما بعد جمعيّةً أدبيّة شعريّة عام ١٩٢٠م، سمّيت /الرّابطة القلميّة/ برئاسة جبران خليل جبران، وقد أُسنِدَت إلى ميخائيل نعيمة أمور الرّابطة الاستشاريّة والقانونيّة لإلمامهِ بالقانون، وتميُّزِهِ بلغةٍ قويّة وبيانٍ أصيل، فحمل لقب «مُستشار الرّابطة القلميّة»، وسرعان ما ذاعَ اسمُهُ ناقداً من طرازٍ رفيع متجاوزاً بلاد المهجر، إذ استحقّ من خلال إصدار كتاب «الغربال»

---

[١] يُنظر: الشّعر العربيّ في المهجر أميركا الشّماليّة، د.إحسان عبّاس و د.محمد يوسف نجم، ص 177.

[٢] يُنظر: أدب المهجر، د.عيسى النّاعوري، ص 376 - 377.

عام ١٩٢٣م مكانةً أدبيّة عظيمة بين أدباء الشّرق وشعرائه وناقديه، وقد بسطَ فيه مقاييسَهُ الأدبيّة والنّقديّة الجديدة ([1]).

وقد أنهى (نعيمة) غربتَه عام ١٩٣٢ حيثُ غادرَ أميركا بعد وفاة صديقهِ الحبيب جبران، فعادَ إلى لبنان مُلتزِماً العزلة في ظلال مزرعة «الشّخروب» في بلدته الهادئة «بسكنتا»([2]) إلى حين وفاته.

أمّا مؤلّفات (نعيمة) الّتي أنتجها في غربته فقد نُشِرت بعد عودته إلى موطنه، وهي: «همس الجفون– ديوان، كان ما كان– أقاصيص، المراحل– مقالات، ومُذكّرات الأرقش– قصّة». إضافةً إلى مؤلّفات أخرى أنتجها في لبنان مُعبّراً بها عن كلّ ما امتلأت به روحُهُ في المهجر، نذكرُ منها ما يأتي: «جبران خليل جبران، زاد المعاد، لقاء، الأوثان، البيادر، صوت العالم، النّور والدّيجور، كرم على درب، مرداد، دروب، في مهبّ الرّيح، سبعون»([3]).

– جوهر الحِسّ الصّوفيّ :

إنّ الإحساس الصّوفيّ إحساسٌ فِطريّ نابعٌ من طبيعة الإنسان الحقيقيّة التّوّاقة إلى المصدر الإلهيّ.

فالتّصوُّف "نزعة طبيعيّة فرديّة في كلّ إنسان. لأنّه استجابةٌ لحنين الرّوح إلى مصدرها الأوّل ذلك الحنين الّذي يقوى كلّما قلّت سيطرة الجسد المادّي على الرّوح."([4])

ولكن لكي ينعتقَ الإنسان ويتحرّر من قيود المادّيات الّتي لا تسمحُ له بإدراك تلك الفِطرة السّاكنة في أعماقه، لا بُدّ له أن يُجاهد مُجاهدةً واعيةً مُرتكزةً على التّأمُّلات الرُّوحيّة العميقة.

وقد قِيل الكثير في أصل كلمة /صوفيّ/، وتعدّدت الآراءُ في ذلك، فجمهور الصُّوفيّة يذهبون إلى القول بأنّها مُشتقّة من /الصّفاء/ ، ويذهب آخرون إلى اشتقاقها من /الصّف/ للدّلالة على كون المُتصوّف في الصّفّ الأوّل من حيث الاتّصال بالخالق، وغير ذلك من الاشتقاقات الّتي لا يجيزها القياس في اللغة العربيّة، باستثناء اشتقاق واحد، وهو نسبةُ الصّوفي إلى الصّوف([5]) ؛ إذ كان لبس الصّوف علمَ الزّهادة والتّقوى منذ القدم.

لكن ما يهمّ البحث هو أن يُبصِرَ الجوهر الصُّوفيّ في إبداع (نعيمة). فالتّصوُّف جوهرٌ لا مظهرٌ، والقولُ بانتمائه إلى معنى /الصّفاء/ هو ما يُؤثِرُهُ أهمُّ المُتَصوّفين، فالمرءُ في رحلة التّصوُّف الدّاخليّة يعكفُ على تصفية نفسِهِ من كدوراتها، حتّى يغدو مُستعدّاً لِخوض معركة التّخلّي والتّجلّي ([6]).

ولا بدّ من التأكيد على كون التّصوُّف أمراً قلبيّاً، لا يُمكنُ وصف حقيقته بتعريفٍ عامّ يتّفق عليه الجميع، إلّا أنّ الجوهر الأساس في الحكمة الصُّوفيّة واحدٌ يتمثّلُ في كونه تحرُّراً من /الأنا/ البشريّة الكاذبة،

([1]) يُنظر: شعراء الرّابطة القلميّة، د.نادرة جميل سرّاج، ص 306 - 309.
([2]) يُنظر: المرجع السّابق، ص 315.
([3]) يُنظر: أدب المهجر، د.عيسى النّاعوري، ص 378 - 379.
([4]) التّصوّف في الشّعر العربي نشأتُه وتطوّره حتّى آخر القرن الثّالث الهجري، عبد الحكيم حسّان، ص 22.
([5]) يُنظر: في التّصوّف الإسلاميّ وتاريخه، رينولد.ا.نيكولسون، ترجمة أبو العلا عفيفي، ص 66.
([6]) يُنظر: الإمام القشيريّ حياته وتصوّفه وثقافته، د.إبراهيم بسيوني، ص 68 - 69.

ليمنحَ /الأنا/ الحقيقيّة إمكانيّة أن تبرزَ في العالم المحسوس، لأنّ هذا ما يسمحُ لروح الإنسان بالتفتُّح، ويُتيح لِأَناه الفعليّة الخالدة أن تتحقّقَ من خلال اتّصالها بالمصدر الإلهيّ [١].

– تجلّيات النّزعة الصُّوفيّة في شعر ميخائيل نعيمة :

أوّلاً: الزّهد:

لقد كان (ميخائيل نعيمة) إنساناً زاهداً مخلصاً لذاته، مؤمناً بجوهرها الثّمين الكامن في أعماق حاله الزّهيدة. وهذا الإخلاص الصّادق كان ثروتَهُ الّتي يعتزُّ بها، فلا يهمّه أن يُراكِمَ الأموال، و لا يشعرُ بأيّ غصّة تُجاه غنى أيّ مخلوق. فها هو يخاطب حاشد الأموال قائلاً له :

لا و الّذي الأقدارُ خدّامه
ما في فؤادي غصّةٌ من غناكْ
إذ قد حباني الحظُّ بعضَ الغنى
يا صاحبي من غير ما قد حباكْ
فاحشد و لا تشفق على فقري[٢]

إنّ (نعيمة) يقدّم لنا من خلال ما سبق سماتِ شخصيّتهِ الرّاغبة عمّا في أيدي الخلائق، المُتّجهة نحو بُغيتِها الأساسيّة في الأخذ بالحقائق[٣].

و بذلك فهي شخصيّةٌ تتّصفُ بميلٍ تصوّفيّ جليّ، إذ تشكّل تلك السّماتُ الملامحَ الرّئيسة للتّصوّف كما عرَّفَهُ رأسُ مدرسته التّقشُّفيّة في القرن الثاني للهجرة (معروف الكرخي)[٤].

ثانياً: التّعمُّق الوجدانيّ في جوهر النّفس:

إنّ النّزعة الصّوفيّة نزعة وجدانيّة قلبيّة تنتمي إلى حقل الأحاسيس الشّخصيّة[٥].

و بالتّالي فهي إحساسٌ ذاتيّ ينبعُ من تعمُّق الإنسان في عالمه الدّاخلي، و من مراقبته نفسَه، وما يختلجُ فيها من مشاعر وصراعات وأشواق، ومن محاولته السّاعية للوصول إلى المصدر الّذي تهدأُ من خلال الاهتداء إليه حيرةُ النّفس، وتتلاشى أسئلتُها، وتسكنُ ملامحُها.

ولا عجب من تجلّي تلك النّزعة في أشعار (نعيمة)، فقد كان دوماً المُراقبَ اليَقِظ لنفسه، يخاطبُها ويُسائلُها، ويحثُّها علي البوح بمكنوناتها وأسرارها لعلّه يدركُ مصدرَها وماهيَّتَها.

يقول (نعيمة) في قصيدته /مَن أنتِ يا نفسي/ :

إن رأيتِ الرّيحَ تذري الثّلج عن روس الجبالْ ،
أو سمعتِ الرّيح تعوي في الدُّجى بين التّلال ،
تسكن الرّيح و تبقَيْ باشتياقٍ صاغيهْ
و أُناديكِ و لكن أنتِ عنّي قاصيهْ

---

[١] يُنظر: تعاليم المتصوّفين، حضرة عنايات خان، ترجمة د.إبراهيم استنبولي، ص 24.
[٢] همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 33.
[٣] يُنظر: تاريخ الأدب العباسي، رينولد.ا.نكلسن ، ترجمة وتحقيق د.صفاء خلوصي، ص 190.
[٤] يُنظر: المرجع السابق، ص 189 - 190.
[٥] يُنظر: تاريخ التّصوّف في الإسلام، د.قاسم غنى، ترجمه عن الفارسية صادق نشأت، ص 273.

في محيط لا أراه .

هل من الرّيح وُلدتِ ؟[١]

و كما يتَّضحُ في هذا النّصّ فإنّ التّركيز النّفسيّ للشّاعر مُنصَبٌّ على إدراك العالم الدّاخليّ، وهذا أهمُّ ما يُميّز النّصَّ الصّوفيّ، فهو "سياحة داخل الذّات ابتغاء التّعرّف على مضمراتها النّفسيّة"[٢].

و يبدو (نعيمة) في استكشافه لخباياه الدّاخليّة كَجنديّ شجاعٍ مُصَمّمٍ على خوض معركته الذّاتيّة، تلك المعركة الّتي تُشكّلُ النّفسُ بما فيها من مُضمراتٍ وجدانيّة ساحتَها وميدانَها.

و بذلكَ نجدُ أنّ شعرَهُ يحملُ في صميمه ماهيّةَ الأدب الصّوفيّ الّذي هو "أدبُ الأزمة الدّاخليّة، أدبُ الوجد والوجدان والمحتويات الشعوريّة."[٣].

و قد نسجَ (نعيمة) قصيدتَه تلك من مجموعةٍ من التّساؤلات النّفسيّة الكثيرة، فبعدَ أن يغوصَ في تأمُّل البحرِ والرّعدِ والرّيحِ والفجرِ والشّمسِ والألحان[٤] ، يُثابرُ في حيرتِهِ الوجدانيّةَ مُتسائلاً عن مصدر نفسهِ، فَهَل وُلِدَت من

تلكَ المظاهر الطبيعيّة الّتي تُشبِهُها في جوهرها؟.

ومن خلال تلك التأمُّلات والتّساؤلات يُشير(نعيمة) إلى فكرة صوفيّة عميقة تتمثّلُ في كون النّفس الإنسانيّة مُختَصرةً من العالم، وفيها من كلّ صورةٍ في العالم أثرٌ منه[٥].

كما أنّهُ بذلك يخطو الخطوةَ الواعية الأولى في سبيل إدراك المصدر الإلهيّ إدراكاً حقيقيّاً مُبصِراً يتجاوز حدود الإيمان العادي ، إذ تُشكّلُ معرفةُ النّفس المفتاح الثّمين لمعرفةِ الخالق العظيم[٦]، وهذا ما سيتجلّى في نهاية القصيدة كما سيُبيّنُ البحثُ لاحقاً.

وانطلاقاً ممّا سبق نجدُ أنّ شعر (نعيمة) يمتازُ بأهمّ سمات الشّعر الصّوفيّ وخصائصه؛ ففيه يبرزُ التّعبيرُ الوجدانيّ، ويتّجهُ الاهتمام الشّديد نحو الحديث عن النّفس، ويتكثّفُ الإصغاءُ للذّات، ويتجلّى في بُنيتِهِ أسلوبُ التّحليل النّفسي الدّقيق، ويتسامى في مضمونهِ الهوى ليكون ذا صبغةٍ روحانيّة رومانسيّة حالمة[٧].

ثالثاً: التّعبير عن تجربة روحيّة ذاتيّة :

لقد كان (ميخائيل نعيمة) في شخصيّتهِ وأشعاره في شوقٍ عظيم إلى معرفةِ كُنْهِ النّفس وحقيقتِها، تلك الحقيقة المُجرّدة الّتي كانت على مرّ الأزمنة غايةَ الصُّوفيّين، تصبو نفوسُهم إلى فهمِها وإدراكها.

إذن، فالتّصوّفُ كما تجلّى في شعر (نعيمة)، وكما هو في صميمه وجوهره شعورٌ ناتجٌ عن تجربة روحيّة،

لا تسكبُهُ البيئةُ الخارجيّة في نفس المرء، بل إنّهُ يولدُ من أعماقه نتيجة المجاهدة النّفسيّة[٨].

---

١) همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 19 .
٢) ابن الفارض شاعر الحبّ الإلهيّ، يوسف سامي اليوسف، ص 10.
٣) المرجع السّابق، ص 9.
٤) يُنظر: همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 18 - 19 - 20 – 21.
٥) يُنظر: كيمياء السّعادة، الإمام أبو حامد الغزالي، حقّقه أبو سهل نجاح عوض صيام، ص 42 .
٦) يُنظر: المصدر السّابق، ص 23.
٧) يُنظر: الأدب في التّراث الصّوفيّ، د.محمد عبد المنعم خفاجي، ص 177 .
٨) يُنظر: التّصوّف الثّورة الرّوحيّة في الإسلام، د.أبو العلاء عفيفي، ص 12 - 15.

إنّهُ "تجربةٌ تتّجهُ فيها «الإرادة» الإنسانيّة نحو موضوعها الّذي تتعشَّقُه وتفنى فيه، فتعرفُه النّفسُ عن طريق الاتّحاد به معرفةً ذوقيّة..."([1]).

فها هو (نعيمة) في نهاية قصيدته المذكورة آنفاً يُعبّرُ عن إحساسٍ هادئ هانئ، فبعدما تاهت سفينةُ حيرته النّفسيّة في محيط التّساؤلات أبصرَتْ عيناهُ شُعاعاً من منارة الحقيقة، فيقول :

إيه نفسي ! أنتِ لحنٌ فيَّ قد رنَّ صداه
وقَّعَتكِ يدُ فنّان خفيّ لا أراه .
أنتِ ريحٌ و نسيمٌ ، أنت موجٌ ، أنت بحرُ ،
أنت برقٌ ، أنت رعدٌ ، أنت ليلٌ ، أنتِ فجرُ
أنتِ فيضٌ من إله !([2])

و هكذا تراءى للشّاعر نورٌ من أنوار الحقيقة عرفَهُ وأدركهُ بفؤاده، "فالصُّوفيّ يعرفُ «المُطلَق» اللّامتناهي بقدر ما يتجلّى له ذلك المُطلَق في قلبه"([3]).

وممّا سبق يتبيّنُ أنّ (نعيمة) قد نزعَ في شعره نزعةً ذاتيّةً عميقة، وانطلقَ في رؤيته الصُّوفيّة من تجربة روحيّة شخصيّة. وبذلك فقد سارَ على خُطا الصُّوفيّين، إذ ضربَ في عالم ما وراء الحسّ، وحاولَ أن يصلَ بقلبه إلى ما لا يتسنّى للعقلِ والحواسّ الوصول إليه([4]).

لقد أبصرَ (نعيمة) المصدر الإلهيّ الكامن في نفسه إبصاراً واعياً يتسامى فوق الفهم البشريّ المُعتاد، إذ إنّ الفهمَ المألوف للخالق لا يدفعُ الإنسان إلى التدبّر والتأمّل العميق في نفسه بما ينطوي عليه ذلك التأمّل من ألمٍ وقلقٍ وحيرةٍ، فيبقى الإنسان رهين إيمانٍ فاقدِ الوعي، لأنّه لا يمكنُ للإيمان الحقيقيّ الواعي أن يولدَ من دون اختبارٍ روحيّ ذاتيّ، وتبصُّرٍ نفسيّ عميق.

رابعاً: الحبّ الإلهيّ :

إنّ التجربة الصّوفيّة نارٌ كامنةٌ في أعماق النّفس الحسّاسة تُغذّيها الإرادةُ الصّادقة، والعاطفة الوجدانيّة الخالصة، فهي إذن ليست تجربةً ناتجةً عن العقل والفكر.

و من الطبيعيّ انطلاقاً من جوهرها الوجدانيّ هذا أن يكون « الحبُّ » بمعناه الكامل السّامي هو اللّغة الأنسب،

والتّعبير الأفضل للإفصاح عن نزعات المرء الرّوحيّة([5]).

وهذا ما تجلّى في شعر (نعيمة) الّذي اختبرَ نيران تجربته الدّاخليّة اختباراً صادقاً، وحاولَ أن يُصوّر ذلك الاختبار، فجاءت لغتُهُ الشّعريّة مُلتَهبةً بمفردات الوجد والمعاناة والحُرْقة، وامتلأت تعبيراتُه بالألفاظ التّي طالما اعتمدها العاشقون في وصف حُبّهم ووَجْدهم.

إلّا أنّ حبّ (نعيمة) هو الحبّ الّذي يتوق إلى الاتّصال بالمحبوب الأوّل الّذي تُدركُه النّفسُ بالذّوق([6]).

([1]) المرجع السّابق، ص 15 – 16.
([2]) همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 21 .
([3]) التّصوّف الثّورة الرّوحيّة في الإسلام، د.أبو العلاء عفيفي، ص 16.
([4]) يُنظر: الأدب في التّراث الصّوفيّ، د.محمد عبد المنعم خفاجي، ص 177.
([5]) يُنظر: التّصوّف الثّورة الرّوحيّة في الإسلام، د.أبو العلاء عفيفي، ص 20 .
([6]) يُنظر: المرجع السّابق، ص 20.

فالحبّ الإلهيّ هو السّمة المُلازمة للإنسانَ المُتصوّف، وهو عماد التّجربة الرّوحيّة، إنّهُ ثمرةُ الأشواق الوجدانيّة الدّاخليّة التّوّاقة إلى معرفة الله والاتّصال به[١]. يقول في قصيدة /التّائه/ :

بل في ضلوعي نارُ تُثيرُها الأقدارُ
يا ليتها تختارُ سواي موقدا
نارٌ بلا رماد يُشوى بها فؤادي
و ليس إذ ينادي من يسمع النّدا
واحرقتي ، أوّاه لو كنت أدري ما هي
أَشعلةُ الإلهِ أم شعلة الرّدى
فهي الّتي تحيِيني ، و هي الّتي تفنيني
وهي الّتي تسقيني من جمرها ندى[٢]

إذن، إنّ نفس (نعيمة) تغلي بتوقٍ شديد نحو تجاوز عالم الحسّ والعقل، فالحبّ الّذي تعمّقت جذورُه في تُربتِها لا يُمكن للفكر أن يستوعبَهُ. فها هو ذا في قصيدة أخرى يُخاطبُ أفكارَهُ، قائلاً :

بربّكِ ، أفكاري ، دعينيَ سابحاً
ببحر وجودي – دودةً بين أسماك
ضريراً ، أصمّاً ، أبكماً ، متجلبباً
بجهلي و ضعفي ، دون علمٍ و إدراك[٣]

و كيفَ للإدراك العقلي أن يفهم الحال الوجدانيّة الصّوفيّة الّتي تتملّكُ (نعيمة)؟! وحدَهُ الحبّ يقوى على ترجمة تلك الحال. لهذا فقد "اصطنعَ الصُّوفيّة على اختلاف مِلَلهم وأجناسهم وأوطانهم لغةَ الحبّ للتّعبير عن أحوالهم وأذواقهم الّتي لا يستطيع العقلُ إدراكها، و لا اللّغةُ التّعبير عنها"[٤].

إنّ عقيدة الحبّ الإلهيّ هي العقيدة العُليا السّامية الّتي تنصهرُ في بوتقتها جميعُ الخصائص المُهمّة للتّصوّف، إذ تمثّلُ أرقى صورة من صور الرّضا[٥]. وقد تألّقت هذه العقيدة في شّعر (نعيمة) الّذي جعلَ من الحبّ غايةَ أدعيتِهِ وابتهالاتِهِ. يقول :

و اجعل اللّهمّ قلبي
واحةً تسقي القريبْ
و الغريبْ
ماؤها الإيمان ، أمّا غرسُها
فالرّجا و الحبُّ والصّبرُ الطّويل[٦]

---

[١] يُنظر: الفلسفة التّصوّف وأثرهما على الأدب في العصر العبّاسيّ، عبد الشّكور حسن أحمد حامد، ص 263.
[٢] همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 52 - 53.
[٣] المصدر السّابق، ص 51.
[٤] التّصوّف الثّورة الرّوحيّة في الإسلام، د.أبو العلاء عفيفي، ص 20.
[٥] يُنظر: في التّصوّف الإسلاميّ وتاريخه، رينولد.ا.نيكولسون، ترجمة أبو العلا عفيفي، ص 73.
[٦] همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 38.

و نلحظُ هنا أنّ (نعيمة) قد استخدم فنّاً من أهمّ فنون الشّعر الصّوفيّ ألا وهو «الدّعاء»[١].

فنراهُ يُناجي الخالق بدعاءٍ صافٍ يتصاعدُ من قلبٍ متواضعٍ مُحِبٍّ لله، واقعٍ في بحارِ أُنْسِهِ، مُتلذّذٍ بروح مناجاته، فالمناجاة هي سعادةُ الإنسان ذي الحسّ الصّوفيّ الشّاكر ربَّه بعدما شرِبَ كأسَ حُبّهِ[٢].

خامساً: الوعي الصُّوفيّ :

يفوح من شعر (نعيمة) وعيٌ صوفيٌّ سامٍ يترفّعُ عن مُتَع الحياة العاديّة المألوفة، لِيتَّحدَ بحياةٍ ذات فرحٍ وبهجةٍ من نوع آخر. ولا عَجَبَ من كون (نعيمة) قد بلغَ في شخصيّته وشعره ذلك الوعي؛ فالنّفسُ الّتي اختبرت نيرانَ الوجد والحيرة، وصابرت في سبيل فهمِ جوهرها، لا بدّ لها في وقتٍ ما أن تستيقظَ وتخرجَ عن مألوف العادات البشريّة. إذ "يتحوّلُ فيها مركزُ الشّعور من المراتب الدّنيا إلى المراتب العليا، ثمّ يتحوّل تبعاً لذلك مركزُ الاهتمام من «الذّات» إلى موضوع جديد تجدُّ النّفسُ في الوصول إليه واللّحاقِ به"[٣]. فها هو ذا يقول :

يا ساقيَ الجلاّس بالله لا
تحفل بكاسيْ بَين هذي الكؤوسْ
أترع لغيري الكاس ، أمّا أنا
فاحسب كأنّي لست بين الجلوسْ
واعبر ، و دعني فارغَ الكاسِ

لا ، لا تقل ما طابت الخمرُ لي
أو إنّني ما بينكم كالغريبْ ،
بل إنّ لي يا صاحبي خمرةً
ما مثلها يُطفي بروحي اللهيبْ
أعصِرها من قلبيَ القاسي[٤]

كما تجلّى وعيُ (نعيمة) الصّوفيّ في إيمانه بأنّ «المعنى» الّذي يُمضي الإنسان حياتَهُ باحثاً عنهُ، مُكافِحاً بُغيةَ الوصول إليه، إنّما هو قابعٌ في داخله، ساكنٌ في أعماقه. ففي عُمقِ النّفس الإنسانيّة يوجدُ مصدرُ الحبّ الّذي لا ينضب، يوجدُ السّرُّ الّذي يتوهّمُ البشرُ وجودَه في الغايات الدّنيويّة، والرّغبات الخارجيّة، فيَضِيعُون في متاهاتهم الفكريّة والعاطفيّة، ويتوهون في أصقاع الأرض عبثاً.

يقول (نعيمة) واصِفاً تلهُّفَ الناسِ لقدوم السّنة الجديدة، وانتظارَهم لِخفاياها :

النّاسُ في أسرارها حائرون
والسّرُّ ، لو يدرون ، فيهم مُقيمْ[٥]

---

[١] يُنظر: الأدب في التّراث الصّوفيّ، د.محمد عبد المنعم خفاجي، ص 179.
[٢] يُنظر: أبو يزيد البسطامي، تحقيق قاسم محمد عباس، ص 58.
[٣] التّصوّف الثّورة الرّوحيّة في الإسلام، د.أبو العلاء عفيفي، ص 22.
[٤] همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 28.
[٥] المصدر السّابق، ص 27.

و في قصيدةٍ أخرى بعنوان /الطّريق/ نجدُهُ يقول :

نحنُ يا ابني عسكرٌ قد تاه في قفرٍ سحيقْ
نرغبُ العَودَ و لا نذكر من أين الطّريقْ

فانتشرنا في جهات القفر نستجلي الأثرْ
نسأل الشّمس عن الدّرب و نستفتي الحجر

و سنبقى نفحصُ الآثار من هذا و ذاكْ
ريثما ندرك أنّ الدّرب فينا لا هناكْ[١]

هذا هو وعيُ الصّوفيّة، إنّها "الحنينُ الدّائم للمركز الّذي تتركّزُ حوله جميعُ الدّوائر."[٢]

وهي الحكمةُ الّتي تؤكّدُ دائماً على أنّ «المعنى» أو «الجوهر» أو «مصدر الحبّ» لا وجود لهُ إلّا في داخلنا، وأنَّ "البلوغ إليه لا يتطلّبُ إلّا أن يتمكّن المرءُ من أن يطوي مسافةَ ذاته. وهذا يعني أنّ المركزَ فينا...بل إنّنا نحنُ المركز وليس سواه"[٣].

سادساً: حبّ الطّبيعة والإيمان بحقيقة الإنسان :

لقد أحبَّ (نعيمة) الطّبيعة حبّاً شديداً غامِراً جعلَهُ يُبصِرُ ما وراءَها. إذ بفضلِ تأمُّلِهِ العميق في تجلّياتها استطاعَ أن يلمسَ بأصابع روحهِ السّرَّ الإنسانيَّ الكامنَ في داخله. فها نحنُ ذا نراهُ في قصيدته /صدى الأجراس/ مُنتشِياً بحُبّ الغاب، ومُبتَهجاً سعيداً مُنْقاداً بحُبٍّ يسلُبُه عقلَه، يقول :

الرّيحُ تمرُّ بنا خَببا
فيميس الحَورُ لها طربا
والشّمس بلطفٍ تلثم أوجُهَنا
و تذرّ لنا ذهبا .
أغصان الغاب تلاعبنا
و هوام الغاب يداعبنا
و صخور الوادي تدعونا
و صدى الأجراس يعاتبنا
دن . دن ! دن . دن !
ها هم أترابي قد سرحوا

---

١) المصدر السّابق، ص 46.
٢) ابن الفارض شاعر الحبّ الإلهيّ، يوسف سامي اليوسف، ص 98.
٣) المرجع السّابق، ص 98.

في الغاب يقودهمُ المرحُ
و بقيتُ أنا وحدي سكرانا
يرقص في قلبي الفرحُ
فجلستُ على كتف النّهرِ
ما بين العوسج و الزّهرِ
العالم مملكتي ، و أنا
سلطان العالم و الدّهر[1]

إذن، فقد أدرك (نعيمة) من خلال حُبّهِ الكبير للطّبيعة قيمةَ الوجود الإنسانيّ، فأحسّ بنفسه سلطاناً يرى في الكون مملكتَهُ. وهذا الإحساس ينبعُ من إيمانٍ صوفيّ خالص، فالصُّوفيُّون "يؤمنون بأنّ الوجود الإنسانيّ هو سرُّ الوجود الكونيّ، وأنّ حياة الإنسان حياة متطوّرة بذاتها نحو الكمال..."[2].

وتلك السّلطنة الّتي يُشير إليها (نعيمة) تتمثّلُ في الامتياز الّذي أُعطاهُ الخالقُ لابن آدم، وفي التّكريم الّذي منحَهُ إيّاه، "فالإنسان وحده دون الكائنات الكونيّة، هو الشّاعرُ بنفسه وبالله... هو المرتبةُ الجامعةُ لكلّ خصائص المرتبة الّتي تجلّت فيها أسمى الحقائق، مرتبةُ الرّوح الّتي هي من روح الله..."[3].

كما يتبيّنُ من خلال ما سبق أنّ (نعيمة) يُؤمنُ بفكرة «الإنسان الكامل» التّي تُشكّلُ هدفاً محوريّاً لدى الصُّوفيّين، يدورون حوله، ويسعون إليه[4]. إذ يترسّخُ في مُعتقدِهم إيمانٌ مُفادُه أنّ "كلّ إنسانٍ في أصلهِ يكتنزُ حقيقةَ (الإنسان الكامل) في نفسه..."[5].

سابعاً: الإيمان بمُعتَقد وحدة الوجود :

تبلغُ الرّؤيةُ الصّوفيّة في شعر (نعيمة) قمّةً ساميةً من خلال إيمانه واعتقاده العميق بمبدأ «وحدة الوجود». إذ ترتكزُ قصيدتُهُ المُعَنونة باسم /إلى دودة/ على هذا المبدأ البارز والمحوري في عالم التّصوّف، والمُتمثّل في نَفي

"أي اختلاف حقيقيّ بين الجوهر وصفاته"[6]، فكلُّ "الأشياء المخلوقة تبقى أزليّة كأفكار (أو أعيان ثابتة) في علم الله..."[7]. وانطلاقاً من إيمان (نعيمة) بهذا المُعتَقد نراهُ في ديوانه قد نظمَ قصيدةً خاصةً في مخاطبةِ مخلوق يستصغرُ الكلُّ قدرَه، وينظرُ إليه نظرةً دونيّة. إلّا أنّهُ في عين (نعيمة) كائنٌ وهبَتْهُ الحياةُ وجوداً ثميناً، ومنحَتْهُ أهمّيةً كامنةً لا يشعرُ بكُنْهِها إلّا مَن كان ابناً حقيقيّاً للحياة. يقول :

و ما أنتِ في عينِ الحياة دميمة
و أصغر قدراً من نسورٍ و عقبانِ
فلا التّبر أغلى عندها من ترابها

---

1) همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 43.
2) الأدب في التّراث الصّوفيّ، د.محمد عبد المنعم خفاجي، ص 122.
3) المرجع السّابق، ص 120.
4) يُنظر: الإنسان الكامل في الفكر الصّوفيّ، د.لطف الله بن عبد العظيم خوجه، ص 141.
5) المرجع السّابق، ص 148.
6) تاريخ الأدب العبّاسيّ، رينولد.ا.نكلسن، ترجمة وتحقيق د.صفاء خلوصي، ص 213.
7) المرجع السّابق، ص 213.

و لا الماس أسنى من حجارة صوّانِ[١]

إنّ هذا الإحساس المُرهَف لا ينبعُ إلّا من أعماق إنسانٍ عارفٍ، انفتحت عينُ بصيرته الدّاخليّة بعدما نامت عينُ بصره الحسّية، وهذا ما يُشكّلُ علامةً بارزةً من علامات الشّخصيّة الصُّوفيّة[٢].

و بناءً على تلك الرّؤية المُوحّدة للوجود بكلّ ما يحتويه من مظاهرَ وأشكالٍ وتجلّيات، يتابعُ (نعيمة) في نهاية قصيدته ليقول :

لعمركِ، يا أختاه، ما في حياتنا
مراتبُ قَدْرٍ أو تفاوتُ أثمانِ
مظاهرُها في الكون تبدو لناظرٍ
كثيرةَ أشكالٍ عديدةَ ألوانِ
و أقنومها باقٍ من البدء واحداً
تجلّت بشُهبٍ أم تجلّت بديدانِ[٣]

و هكذا نرى أنّ عقيدةَ وحدة الوجود ثابتة في فكر (نعيمة)، فالجوهرُ واحدٌ مهما صوّرتِ الحواسّ خلاف ذلك، والكونُ بكلّ ما فيه وحدةٌ متماسكة مترابطة لا تعرفُ الانفصالَ أو التّجزئة ، وما الصّورُ المُتفرّقة الّتي تعكسُها الحواسّ سوى أوهام حسّية لم ترقَ إلى مستوى الإدراك الكُلّي الشامل.

فالله تعالى وحدَهُ "هو صاحب الوجود الحقيقيّ، وكلُّ ما سواه ذو وجود ظلّي، والعالمُ كلّهُ، فاضَ عن ذاتِهِ، كما تفيضُ الشّمسُ بالنّور..."[٤].

لقد تعمّقَ (نعيمة) في إيمانه بالوحدة الوجوديّة، ومن الطّبيعي أن يتمسّكَ بتلك العقيدة لأنّها في أصلها وأساسها وليدةُ الحبّ الإلهيّ؛ إذ إنّ مذهب «وحدة الوجود» هو المذهب الّذي انتهى إليه الحبُّ الإلهيّ لدى الصُّوفيّين، وذلك في آخر القرن الثّالث الهجريّ[٥].

فَمثلما امتلأ فؤادُ (نعيمة) بحُبّ الخالق، واختبرَ نيرانَ الوجد والشّوق إليه، فقد امتلأ كذلك بالحكمةِ الّتي تُبصِرُ النّعمةَ الإلهيّة في جميع مظاهر الحياة، وهذه الحكمة لا تتأتّى إلّا لإنسان صادق ذاقَ المحبّة الإلهيّة.

يقول في قصيدة /ابتهالات/ مُناجِياً الله، طالباً منهُ المعرفة الحقيقيّة الّتي تجعلُهُ يُدرك على الدّوام الوجودَ الإلهيّ الخفيّ الغامر لكلّ الوجود، فهكذا هو الصُّوفيّ يرى "أنّ الحقّ وحده هو الفاعل لكلّ شيء في كلّ شيء..."[٦] :

كحّلِ اللّهمّ عيني

---

(١) همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 85.
(٢) يُنظر: تاريخ الأدب العبّاسيّ، رينولد.ا.نكلسن، ترجمة و تحقيق د.صفاء خلوصي، ص 191.
(٣) همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 86.
(٤) التّصوّف جدليّة و انتماء، أحمد علي حسن، ص 150.
(٥) يُنظر: الأدب في التّراث الصّوفيّ، د.محمد عبد المنعم خفاجي، ص 209.
(٦) في التّصوّف الإسلامي وتاريخه، رينولد.ا.نيكولسون، ترجمة أبو العلا عفيفي، ص 92.

بشعاعٍ من ضياكْ
كي تراك

في جميع الخلق : في دود القبورْ ،
في نسور الجوّ ، في موج البحار
في صهاريج البراري ، في الزّهورْ،
في الكلا ، في التّبر ، في رمل القفار[1]

أمّا النّصّ الأكثر تكاملاً من حيث دلالته على عقيدة وحدة الوجود المُترسّخة في فكر (نعيمة)، فإنّهُ يتمثّلُ في قصيدة /الخير والشّرّ/ ؛ الّتي لم يكتفِ فيها (نعيمة) بتأكيده وحدةَ كلّ موجودات الكون ومخلوقاته وحدةً إلهيّة مُتشابكة مترابطة غير قابلة للتّجزئة ، بل تجاوز ذلك إلى القول باتّحاد الخير والشّرّ اتّحاداً عجيباً تكمنُ فيه أسرارُ البقاء والهلاك.

وهذا النّضوجُ الكبيرُ والحكيم الّذي استطاعَ (نعيمة) أن يحتويهِ بقلبهِ الصُّوفيّ العميق يُعدُّ نتيجةً حتميّةً للإيمان الصّادق بمبدأ الوحدة الوجوديّة، فقد "لزمَ عن القول بوحدة الوجود، أي القول بأنّ كلَّ وجودٍ وكلَّ فكرٍ وعملٍ إنّما هو في الحقيقة لله، لوازم لم يتحرّج الصُّوفيّة من التّسليم بها. من ذلك أنّ العالمَ وكلَّ ما فيه خيرٌ في ذاته – بما في ذلك الشّرك والمعاصي – لأنّها لا تعدو أن تكون آثاراً ومظاهرَ لأفعال الله، وأنّها من هذه النّاحية من صفات الكمال الإلهيّ"[2]. وها هي قصيدة (نعيمة) تقول :

سمعتُ في حلمي و يا للعجب !
سمعتُ شيطاناً يناجي ملاكْ
يقول : «إيْ بل ألف إي يا أخي
لولا جحيمي أين كانت سماك ؟
أليس أنّا توءمان استوى
سرُّ البقا فينا و سرُّ الهلاكْ ؟
ألم نُصَغْ من جوهرٍ واحدٍ ؟
إن ينسني الناسُ أتنسى أخاك؟»
فأطرَقَ ابن النّور مُسترجعاً
في نفسه ذكرى زمانٍ قديمْ
و اغرورقت عيناه لمّا انحنى
مستغفراً ، و عانق ابنَ الجحيمْ
وقال : «إي بل ألف إي يا أخي
منْ نارك الحرّى أتاني النّعيمْ»
و حلّقَ الاثنان جنباً إلى

---

[1] همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 35.
[2] في التّصوّف الإسلامي وتاريخه، رينولد.ا.نيكولسون، ترجمة أبو العلا عفيفي، ص 88.

جنبٍ و ضاعا بين وشي السّديمْ[١]

فكأنّما (نعيمة) يرُيدُ أن يقول بأنّ الحياةَ كما تبدو لنا في ظاهرها، بكلّ ما فيها من صراعاتٍ بين القوى الخَيّرة والظّالمة ، بين النّوايا الحَسَنة والسّيّئة، تُشبهُ المحيط؛ فأمواجُ الخير والشّرّ على سطحهِ تتلاطمُ، لكن في أعماقه يسودُ سكونٌ عظيمٌ مهيب لا يعرفُ إلّا الخير العظيم.

وهكذا نجدُ أنّ إيمانَ (نعيمة) قد تسامى عالياً، وحلّقَ في فضاءٍ من الأسرار والحقائق الخفيّة الّتي لا تكشفُ عن مُحيّاها المُنير إلّا لِمَن جاهدَ في سبيل إدراك نورهِ الدّاخلي، واستبسلَ في حمايته مُدركاً أنّهُ قَبَسٌ من النّور الإلهيّ.

ثامناً: الشّعور بالأُنْس والطّمأنينة :

لقد سارت نفسُ (ميخائيل نعيمة) على دربِ تجربةٍ صوفيّةٍ صادقة، ابتدأت كما تبيّنَ آنِفاً بالحيرة والتّساؤل الحثيث السّاعي نحو فهم الجوهر، وتلظّت على مدى مسيرها بنار الوجد والقلق، فتطهّرت من الشوائب البشريّة، واكتسبَت وعياً سامياً مُتَرفّعاً، وأدركَت الحبّ بأنقى معانيه، وأبصرَت نورَهُ غامراً مُوحّداً للوجود بكلّ ما فيه.

ونتيجةً لإخلاص (نعيمة) وتعمُّقهِ الشّجاع في رحلتهِ النّفسيّة تلك، جاءت الطّمأنينةُ ثمرةً لصبرهِ الجميل، وأمدّت ذاتَهُ بالغذاء الحقيقيّ، فاستنارَ، وغدا ثابتاً في الأمن والأمان، لا يهابُ الظّلام مهما انتشر. فها هو ذا يقول في قصيدة /الطّمأنينة/ :

من سراجي الضّئيلْ أستمدُّ البصرْ
كلّما اللّيل طالْ والظّلام انتشر
وإذا الفجرُ مات والنّهارُ انتحرْ
فاختفي يا نجومْ وانطفئ يا قمر
من سراجي الضّئيلْ أستمدُّ البصر![٢]

وممّا لا شكّ فيه فإنّ الإحساس بالأُنْسِ والسّلام نتيجةٌ تلقائيّة لِمَن تعمّقَ في ذاته، واكتشفَ نورَ الإله في داخله، فأخلصَ لهُ، واطمأنّ به.

ولا تكونُ تلك الطّمأنينة إلّا لإنسانٍ "رَجحَ عقلُه، وقوى إيمانُه ورسخَ علمُه، وصفا ذكرُه وثبتت حقيقتُهُ"[٣]، وهي دليلٌ على ثبات الحبّ الصّادق للخالق، فَمِن "صدق المحبّة وخالصها الانقطاع إلى الحبيب بوجود نسيم الأُنس به، ومصادفة الاستراحة والرَّوح عنده..."[٤].

إذن، لقد استقرّت السّكينةُ في فؤاد (نعيمة)، فالمعنى الأساسي للطّمأنينة يتمثّلُ في سكون القلب وراحتهِ كما عرَّفَها صُوفيّةُ القرنَين الثّالث والرّابع للهجرة، وكانت من أهمّ خصائص تصوُّفهم[٥].

---

[١] همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 64.
[٢] المصدر السّابق، ص 73.
[٣] اللُّمع، أبو نصر السّرّاج الطّوسيّ، حقّقه د.عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور، ص 98.
[٤] قوت القلوب، الشيخ أبو طالب المكّي، الجزء 2، حقّقه د.محمود إبراهيم محمد الرّضواني، ص 1053.
[٥] يُنظر: مدخل إلى التّصوّف الإسلامي، د.أبو الوفا الغنيمي التّفتازاني، ص 132.

إنّها العبير الّذي استنشَقَهُ (نعيمة) بعدما انتصرَ في مجاهداته النّفسيّة، وتحمَّلَ ألمَ أشواقه الدّاخليّة، إذ لم يُفلح ذلك الألم في قهرِ تَوْقه إلى مُعانقة الحقيقة، تلكَ الحقيقة الّتي تجعلُ عاشقَها مُدرَّعاً لا يخشى النّوائب والخطر، وثابتاً آمِناً لا يمكنُ لشيء أن يُعكّر صَفْوَ سلامه الدّاخليّ، فَهَكذا هو الصُّوفيُّ العارف "لا يُكدّرهُ شيء، ويصفو لهُ كلُّ شيء."( ) **باب قلبي حصينْ من صنْوف الكدرْ**

فاهجمي يا هموْ في المسا والسَّحر

وازحفي يا نحوسْ بالشَّقا والضَّجر

وانزلي بالألوفْ يا خطوب البشر

باب قلبي حصينْ من صنوف الكدر !( ) ٢

تاسعاً: السّعادة والإيمان بالحياة الحقيقيّة :

تتألّقُ في أشعار (نعيمة) أروعُ المشاعر الوجدانيّة، وأعمقُ الأحاسيس الصُّوفيّة، فالسّعادة الّتي نتحدّثُ عنها هنا كواحدة من أهمّ خصائص الشّخصيّة الصُّوفيّة لا تُشيرُ إلى المعنى السّطحي السّائد لهذه الكلمة، فهي ليست وليدةَ الرّغبات الدّنيويّة الّتي سرعان ما ينطفئُ وهجُها بعد أن يتمّ تحقيقُها، كما أنّها ليست مرتبطةً بالظّروف الخارجيّة، ولا تعني حالةً من العواطف الانفعاليّة، بل هي في مُعتَقد الصُّوفيّين عطرٌ لازدهار النّفس( ). ٣

إذ تعدّ السّعادة غايةً نهائيّة للدّرب الصُّوفيّ، وثمرةً للإدراكِ الإلهيّ، والمعرفةِ الحقيقيّةِ بالخالق( ). ٤

إنّها وليدةُ الاستسلام الكُلّي الصّادق للإرادة الإلهيّة، ذلك الاستسلام الّذي يجعلُ من فؤادِ الصُّوفيّ فؤاداً سعيداً مُدرِكاً لإيقاع الحياة الخفيّ الهانئ الكامن في كلّ شيء، مهما بدا ذلك الشّيءُ لقلوب البشر موحِياً بالغمّ والأسى.

فَها هو (نعيمة) يبتهجُ لمنظر أوراق الخريف الذّاوية، و يجدُ في تناثرها بهجةً للعين، وسروراً للنّفس، على عكس ما يبعثُهُ هذا المنظر في قلوب الآخرين من حزنٍ وكآبة، إذ يميلون في هذا الفصل نحو استشعارِ آلامهم، وتذكُّر خَيباتهم، فيعيشون داخل قفصٍ من الذّكريات والأوهام العاطفيّة التّي كثيراً ما يحلو لهم أن يتلذّذوا بها.

إنّ نظرةَ (نعيمة) لأوراق الخريف نظرة مُغايرة، ونقيّة من شوائب الذّكريات، لذلك فهي قادرة على إبصار جلال الحياة بكلّ مواسمها، وعلى إيجاد مكامن السّعادة في كلّ مظاهرها.

وهكذا هو التّصوُّف في حقيقةِ جوهره، وكما وصَفَهُ جلال الدّين الرّومي، إنّهُ "وجدان الفرح في الفؤاد عن إتيان التّرح"( )، أي إنّ الصُّوفيّ يُخلِصُ للفرح،٥ويُؤثِرُ السّرور على البؤس والأسى؛ لأنّه في أعماقه قد شعَّ النّورُ الإلهيّ الّذي يوحّدُ المُتناقضات، ويُزيلُ الحُجب البشريّة الّتي تُغطّي شمسَ السّكينة والسّعادة والهناء.

() أبو يزيد البسطامي، تحقيق قاسم محمد عباس، ص 73.

٢) همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 74.

٣) يُنظر: تعاليم المتصوّفين، حضرة عنايات خان، ترجمة د.إبراهيم استنبولي، ص 287.

٤) يُنظر: مدخل إلى التّصوّف الإسلامي، د.أبو الوفا الغنيمي التّفتازاني، ص 181.

٥) مثنويّ، مولانا جلال الدّين الرّومي، الكتاب الثّالث، ترجمة د.إبراهيم الدّسوقي شتا، ص 281.

يقول (نعيمة) واصفاً الأوراق الخريفيّة بإحساسٍ مُرهَفٍ، وإيقاعٍ عَذْبٍ يُحاكي شعورَه بإيقاعات الحياة الخفيّة :

تناثري تناثري
يا بهجةَ النّظرْ
يا مرقصَ الشّمس ويا
أرجوحة القمر
يا أرغن اللّيل ويا
قيثارة السَّحَرْ( ) ، [١]

ثمّ يكمل قائلاً :

وبعد أن تفارقي
أترابَ عهدٍ سابقِ
سيري بقلبٍ خافقِ
في موكب القضا
تعانقي ! تعانقي !( ) ، لِيختتمَ القصيدة بقوله : [٢]

عودي إلى حضن الثّرى
و جدّدي العهودْ
وانسي جمالاً قد ذوى
ما كان لن يعود
كم أزهرت من قبلك
وكم ذوت ورود
فلا تخافي ما جرى
ولا تلومي القَدَرا
مَن قد أضاع جوهرا
يلقاه في اللّحودْ
عودي إلى حضن الثّرى !( ) [٣]

وفي هذا الختام يتجلّى إيمان (نعيمة) بالحياة الحقيقيّة الحاملة للجواهر، تلك الحياة الّتي يكونُ الموتُ جسراً إليها، وباباً يفتحُ للنّفس فرصةً ثمينة لإدراك إمكانيّات أوسع، فكما يؤمنُ الصُّوفيّون تكونُ "قوّةُ

() همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 47.
() المصدر السّابق، ص 48.
() المصدر السّابق، ص 49.

النّفس في العالم التّالي أكبر بكثير من تلك الّتي تمتلكُها في عالم القيود هذا. فالنّفسُ في العالم التّالي تُصبح... أكثر نُضجاً وتتكشّف عن قدرة لم تكن تعلم بها على الأرض..."[1]، إذ لم تَعد مُقيّدةً بشدّة في الزّمانْ والمكان.

وتلكَ هي الجوهرة الّتي يُبصرُها (نعيمة) في حُضن الثّرى، فَفيه يرى ذهبَ النّفس الحقيقيّ يلمعُ ويتلألأ.

إنّهُ يُمجّدُ العودةَ إلى الأصل لأنّها بوّابةُ البعث، الّذي هو "الصّعود إلى تلك الحياة الحقيقيّة، إلى ذلك الصّديق الفعليّ، الّذي يُمكنُنا الاعتماد عليه وحده فقط من بين كلّ الأشياء وكلّ الكائنات، الّذي لا يتغيّر ولا يتبدّل، الّذي دائماً معنا وسيبقى معنا إلى الأبد."[2]

خاتمة :

لقد توصّلَ البحثُ من خلال الدّراسة الّتي قدّمها إلى نتيجةٍ مفادُها أنّ شعر (نعيمة) يرقى في مضمونه إلى مقام النّصوص الصّوفيّة العميقة. وبناءً على ذلك فإنّ أهمّ توصيات البحث تكمن في حثّ الباحثين على الإضاءة أكثر في دراساتهم الأدبيّة على الخصائص الصُّوفيّة الكامنة في إبداع (نعيمة) الشّعري، بُغية تكوين صورة شاملة حول أشعاره القليلة كمّاً، الغنيّة مضموناً.

كما اهتدى البحثُ إلى خلاصةٍ أخرى مُهمّة تتمثَّلُ في تأكيده صدقَ التّجربة الصُّوفيّة الذّاتيّة لدى (نعيمة)، إذ لم يكن التّصوُّف في شعره تعبيراً عن مَيلٍ وجدانيّ مؤقّت، بل كان وليدَ حياةٍ صادقة عاشَها (نعيمة) مُتعمّقاً في أسرار النّفس، باحثاً عن الحقيقة بشوقٍ وإخلاص. وانطلاقاً ممّا سبق يُوصي البحثُ بضرورة أن تدخلَ حياةُ (ميخائيل نعيمة) في حيّز الدّراسة الدّقيقة لمعرفةِ التّجارب التّي دفعَتْهُ إلى الغوص في أعماق ذاته.

فالتّصوُّفُ فِطرةٌ ومُجاهدة؛ فطرةٌ كامنةٌ كاللُّؤلؤة في أعماق النّفس الإنسانيّة، تحتاجُ إلى جهادِ الغوص للوصول إليها، والفوزِ بها. لكنّ الإحساس الذّاتيّ بوجود تلك الفطرة، وبضرورةِ المُجاهدة في سبيل نيلها يحتاجُ إلى مواقفَ وتجاربَ شخصيّةٍ توقِظُهُ في نفس المرء. وهنا تبرزُ حساسيّةُ كلّ إنسان، ودرجةُ رهافتهِ في تفاعله مع مختلف التّجارب، ومقدارُ استعدادهِ للصّحوة، وللإخلاص في التّوجُّه الدّاخليّ.

المصادر والمراجع :

1 – *أبو يزيد البسطامي* : تحقيق قاسم محمد عباس – ط 1 – دار المدى للثّقافة والنّشر دمشق، 2004.

2 – *الأدب في التّراث الصُّوفيّ* : د.محمد عبد المنعم خفاجي – دار غريب للطّباعة القاهرة، (د.ت).

3 – *أدب المهجر* : د.عيسى النّاعوري – ط 3 – دار المعارف مصر، 1977.

4 – *الإمام القشيريّ حياته وتصوّفه وثقافته* : د.إبراهيم بسيوني – ط 1 – مكتبة الآداب القاهرة، 1413 / 1992.

5 – *الإنسان الكامل في الفكر الصّوفيّ* : د.لطف الله بن عبد العظيم خوجه – ط 1 – دار الهَدي النّبوي مصر دار

الفضيلة السّعوديّة، 1430 / 2009.

[1] تعاليم المتصوّفين، حضرة عنايات خان، ترجمة د.إبراهيم استنبولي، ص 203 - 204.

[2] المصدر السّابق، ص 209.

6 – *ابن الفارض شاعر الحبّ الإلهيّ* : يوسف سامي اليوسف – ط 1 – دار الينابيع التّوزيع في مصر دار الثّقافة الجديدة التّوزيع في لبنان دار مختارات، 1994.

7 – *تاريخ الأدب العبّاسيّ* : رينولد.ا.نكلسن – ترجمة وتحقيق د.صفاء خلوصي – المكتبة الأهليّة بغداد، (د.ت).

8 – *تاريخ التّصوّف في الإسلام* : د.قاسم غنى – ترجمهُ عن الفارسيّة صادق نشأت – مكتبة النّهضة *المصريّة*

القاهرة، (د.ت).

9 – *التّصوّف الثّورة الرّوحيّة في الإسلام* : د.أبو العلاء عفيفي – دار الشّعب بيروت، (د.ت).

10– *التّصوّف جدليّة وانتماء* : أحمد علي حسن – منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، 1990.

11– *التّصوّف في الشّعر العربيّ نشأته وتطوّره حتّى آخر القرن الثّالث الهجريّ* : عبد الحكيم حسّان – مكتبة

الانجلو المصريّة، 1954.

12– تعاليم المتصوّفين : حضرة عنايات خان – ترجمة د.إبراهيم استنبولي – دار الفرقد للطّباعة والنّشر والتّوزيع

دمشق، الطبعة الأولى 2006 الطبعة الثّانية 2008.

13– شعراء الرّابطة القلميّة : د.نادرة جميل سرّاج – دار المعارف مصر، 1964.

14– *الشّعر العربيّ في المهجر أميركا الشّماليّة* : د.إحسان عباس و د.محمد يوسف نجم – ط 3 – دار صادر بيروت، 1982.

15– *الفلسفة التّصوّف وأثرهما على الأدب في العصر العبّاسيّ* : عبد الشّكور حسن أحمد حامد – بحث مُقدّم لنيل

درجة الدّكتوراه في الأدب بإشراف الدّكتور بابكر الجزولي – جامعة أم درمان الإسلاميّة، 1426 / 2005.

16– *في التّصوّف الإسلاميّ و تاريخه* : رينولد.ا.نيكولسون – ترجمة أبو العلا عفيفي – مطبعة لجنة التأليف و

التّرجمة والنّشر، 1366 / 1947.

17– *قوت القلوب* : الشّيخ أبو طالب المكّي – ج 2 – حقّقه د.محمود إبراهيم محمد الرّضواني – ط 1 – دار العلوم

جامعة القاهرة، 1422 / 2001.

18– *كيمياء السّعادة* : الإمام أبو حامد الغزالي – حقّقه أبو سهل نجاح عوض صيام – دار المقطم القاهرة، 2010.

19– *اللُّمع* : أبو نصر السرّاج الطّوسيّ – حقّقه د.عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور – دار الكتب

الحديثة مصر، 1380 / 1960.

20- *مثنويّ* : مولانا جلال الدّين الرّوميّ - الكتاب الثّالث - ترجمة د.إبراهيم الدّسوقي شتا - الهيئة العامة
لشؤون المطابع الأميريّة، (د.ت).
21- *مدخل إلى التّصّوف الإسلامي* : د.أبو الوفا الغنيمي التّفتازاني - ط 3 - دار الثقافة للنّشر والتّوزيع، (د.ت).
22- *همس الجفون* : ميخائيل نعيمة - ط 6 - دار صادر بيروت، (د.ت).